د. جوني منصور*

كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية الإسرائيلية
تخصيصية - احتكارية وفوقية

افتتاحية

تبقى مسألة حدود الذاتية والموضوعية التاريخية متشابكة فيما بينها لدى كل مؤرخ عندما يأتي إلى كتابة تاريخ شعبه ووطنه. ولكننا في عصر علمي متقدم ومتطور يفرض موضوعية في عرض وتحليل الأحداث والوقائع التاريخية الماضية وذلك لوفرة أدوات واتجاهات البحث العلمي. ورغم صعوبة استخدام هذه الأحداث في موضوع التاريخ لكونه ليس علماً من العلوم الطبيعية أو الدقيقة، إلا أن النهج السائد هو الاستفادة من هذا الاستخدام.

رغم كل ما ذكرناه أعلاه فإن كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية لا تميز بين حدود الذاتية وبين الموضوعية التاريخية. وأكثر من ذلك تستخدم الوسائل والأدوات العلمية لتجنيد الأحداث التاريخية لمصلحة سياسة الدولة، بمعنى أن تدريس التاريخ في هذه المدارس مُسيس من أولة إلى آخره.

وتتعمق عملية التسييس بدعائم شتى من أبرزها التشديد على أن اليهود ملاحقون منذ فجر التاريخ، وهم ضحية، وذلك لأن لهم قدرات وميزات تفوق شعوب الأرض كلها. وكذلك تظهر الكتب التدريسية، والتي فحصنا جزءاً منها انتقائية واسعة المساحة لأحداث تاريخية مجندة لخدمة غايات سياسية. علماً أن التاريخ كعلم - أو أقله كمادة تثقيفية - يسعى إلى خلق إنسان يعرف تاريخه بوضوح وجلاء ويتعرف ويكتشف تواريخ الشعوب الأخرى التي يعيش معها وتعيش معه. ولكن الظاهر أن العملية الانتقائية في كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية تسعى إلى عرض التاريخ اليهودي والإسرائيلي والعربي والإسلامي والعالمي، لتصب في نقطة واحدة، وهي السياسة الإسرائيلية والصهيونية.

من جهة أخرى تسعى كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية إلى ابراز الخصوصية والفرادة لليهود في العالم، ويترافق هذا الابراز والعرض مع تكوين النخب المتفوقة ذاتياً في العالم، وهذا التفوق يمنحها مكانة متميزة تدفعها نحو احتكارية الأحداث، وان هذه الأحداث تدور في فلك اليهود واسرائيل. وسنأتي على توضيح هذا الطرح من خلال البحث التالي.

انتهجنا في هذا البحث الاستناد إلى منهج تدريس التاريخ في المدارس العبرية في كافة المراحل مع التشديد على المرحلتين الاعدادية

* باحث فلسطيني من حيفا ومحاضر في كلية عبلين وكلية تأهيل المعلمين العرب - بيت بيرل

القرن العشرون/تأليف: ايال نافيه

والثانوية. ثم اتجهنا نحو عينة من الكتب المستخدمة فعلياً في تدريس المواضيع، منها ما وضع قبل ثلاثة عقود ومنها قبل خمس سنوات.

وأردنا أن نفحص طريقة عرض تاريخ اليهود في العالم عبر العصور مع التركيز على القرن العشرين، فتبينت لنا التوجهات على النحو التالي: اليهودي هو الضحية الملاحقة دائماً، وتكرار أحداث تاريخية مثل اللاسامية. وحق التفوق والنخبة كشعب مختار ليس فقط دينياً. والهولوكوست كمأتم لا ينتهي أبداً. والانتقائية للأحداث التاريخية. والآخر في كتب تدريس التاريخ وبشكل خاص العربي والفلسطيني. وصورة العربي والمسلم والفلسطيني في نفس الكتب، ونسأل في النهاية السؤال التالي: هل تتوجه هذه الكتب نحو تربية تاريخية صرفة أم نحو تربية عسكرية اسبرطية؟! سيأتي الجواب.

ورد ما يلي في منهج تدريس التاريخ للمرحلة الإعدادية في المدارس العبرية، اصدار جديد لعام ١٩٩٣:

بند ٧,٤ تحسين القدرة على فهم موقف الآخر من وجهة نظره هو

بند ٧,٥ تحسين المعرفة على أنه توجد نقاط اختلاف عديدة والتي يمكن تقبلها بالنسبة لقضايا قومية.

بند ٨,١ معرفة خصوصية شعب اسرائيل بين الشعوب من حيث ماهيته ومصيره.

بند ٨,٤ الاعتراف بالمصير المشترك الواحد للشعب اليهودي على مختلف طوائفه وجالياته.

هل تحقق كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية ما ورد في بندي ٧ و ٨ من المنهاج؟ أم أنها تُسير خطوط التدريس بالاتجاه الانتقائي والفوقي والعدائي؟.

تكرار واستمرار كراهية اليهود

لم تكن كراهية اليهود حدثاً واحداً ووحيداً في حيزي الزمان والمكان بل تجلت الكراهية في عدة أشكال وعلى مدار قرون، وتأخذ كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية هذا الأمر لتظهره في كل فترة زمنية على اعتبار انه أمر يلاحق اليهود أفراداً وجماعة دينية أو قومية، بمعنى أن الكراهية أصبحت متلاصقة باليهود عبر التاريخ. وأكثر من ذلك نجح اليهود وبخاصة رجال السياسة والصحافة والمؤرخون في تطوير مصطلح اللاسامية بواسطة رفعه كشعار دائم لا ينتهي، كلما كان اعتداء لفظي أو كتابي أو عملي على اليهود في موقع ما على الكرة الأرضية. أعتقد ودون أدنى شك ان إثارة موضوع الكراهية وتجلياتها في مظاهر اللاسامية في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ما هي إلا عملية مدروسة ونفعية لدى قطاع سياسي وفكري يهودي.

ولو عدنا إلى كتب تدريس التاريخ لوجدنا بروز خط التكرار في اثارة الموضوع، ففي سبيل المثال، يشير كتاب التاريخ للصف السابع «اليهود بين المسيحية والإسلام» (اصدار وزارة المعارف الإسرائيلية) إلى «أن جموع المسيحيين لم تكتفِ بمنع بناء كنس جديدة أو ترميم القديم منها ـ الجموع المتحرضة بقادة رهبان مسيحيين كانوا يمرون في قرى يهودية ويهجمون على الكنس فيها، يسرقونها وينهبونها ويشعلون النار فيها». ص١٤

هذا في العصور الوسطى وتتابعاً للموضوع نفسه فإن «ما قامت به الحملات الصليبية منذ انطلاقها من أوروبا إثر صرخة البابا اوربانوس الثاني في كليرمونت بفرنسا وحتى وصولها الى الشرق دمرت قرى وكنساً وكنائس ارثوذكسية كثيرة وعاثوا فساداً ببعض منها» (المصدر السابق ص ٩٧).

ويذهب نفس الكتاب إلى أعمق من ذلك في تصوير استمرارية الكراهية ضد اليهود «بأنها ناجمة عن كون المسيحيين يشعرون بمرارة في أوروبا في العصور الوسطى من قيام اليهود بتحقيق تقدم اقتصادي لكونهم يقرضون المسيحيين أموالاً ويجبون الربا» (م. س. ص. ٩٨). وتم تصوير اليهودي في هذا الكتاب بعيون المسيحيين بأنه جشع وطفيلي ويكتسب عيشه من تعب الآخرين، واضطر اليهود للاتكال أكثر وأكثر على القروض والفائدة منها، وبهذا ألزموا على دفع ثمن الكراهية، «أي عمليات العنف والقتل التي لحقت بهم» (م. س. ص ١٠٠).

ولقد رأى ايلي بار ناقي مؤلف الكتاب التدريسي «تاريخ شعب إسرائيل في القرن العشرين» أن «إقامة اسرائيل هي تجربة ناجحة، إذ إن آباء الصهيونية لم يتوقعوا أن تولد الدولة، من داخل أفران غاز الحل النهائي وفي عالم مختلف عن عالمهم» (م. س. ٢٣٠).

وتؤكد كتب التدريس أن «اللاسامية هي ظاهرة قديمة منذ قرون بعيدة، وملاحقة اليهود ظاهرة خالدة واللاسامية الحديثة هي استمرارية لكراهية اليهود السابقة، وهي حركة استطاعت ان تجذب إليها الكثيرين بفضل تجذر الخرافات المعادية لليهود، واظهار اليهودي بأنه سلبي» (كتاب كيدوم لتحضير الطلاب لامتحانات التوجيهي الإسرائيلية، أي: البغروت للعام ١٩٨٩، ص ٨١).

الضحية الملاحقة دائماً

أكثر موضوع/ جانب تبرزه كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية أن اليهود كانوا وما زالوا الضحية الأكثر ملاحقة في العالم لأهم الأسباب أو أتفهها. والملاحقة هذه للضحية لم تكن حدثاً تاريخياً وانتهى، إنما له استمرارية ومتابعة بكافة الأشكال والمظاهر، ولا يتوقف الأمر عند الحدث ذاته، بل إن مؤلفي كتب التدريس يسعون إلى تصوير اليهودي بأنه ضحية الإنسانية مع أنه - أي اليهودي - له مساهمات كبيرة في خدمة هذه الإنسانية. ويبدو أن هؤلاء المؤلفين قد نجحوا في بناء منهجية الضحية التي لا ينتهي تصويب السهام باتجاهها، واستعرض هنا بعضاً من نماذج هذا الجانب وهي كثيرة جداً:

«التطورات التي حصلت في الصناعة والزراعة ابتداءً من القرن التاسع عشر، والتحولات التي طرأت على الطبقات العاملة يتحمل مسؤوليتها اليهودي، واليهودي هو عامل جديد داخل إلى مركز أعصاب المجتمع الحديث، فيتهمه اليمين بأنه جرثومة انقلابية ويتهمة اليسار بأنه عميل للرأسمالية، واليمين واليسار معاً يتهمونه بأنه يسعى الى السيطرة على العالم. انقلب اليهودي الى مركز للتخويف والرعب الذي أحدثه التحديث في العالم» (ايلي بار ناقي. م. س. ص ١٨).

وعند طرح موضوع مظاهر اللاسامية في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر يستغل مؤلفو الكتب التدريسية كل كبيرة وصغيرة لجعل اليهودي الضحية الاساسية الماثلة أمام مجتمعات أوروبا الكارهة له، «فتوجه روسيا القيصرية نحو مواطنيها اليهود صادر من التوتر القائم بين التقدم والتخلف. باسم التطور والتقدم طالب كثيرون بادخال اصلاح على حياة اليهود بروح التنوير الأوروبي والثورة الفرنسية، وجعلهم مواطنين مفيدين، وباسم التخلف لوحقوا واضطهدوا وقتلوا. دعاة التقدم والتخلف سوياً نادوا بسلب هوية اليهودي» (بارناقي. م. س. ص ٢٢).

هكذا يربط مؤرخ إسرائيلي جديد ظاهرة ملاحقة اليهود واضطهادهم بحركية التقدم والتخلف، وهذا استغلال فاضح وغير حقيقي للأحداث التاريخية والواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لروسيا القيصرية وغيرها من الدول الأوروبية في ذلك العصر.

ويذهب بارناقي إلى أبعد من ذلك عندما يربط اليهود كأقلية بتوجه الحكومات نحو الأقليات بشكل عام فيقول: «كلما كانت الثقافة السياسية فاشلة كان التوجه نحو الأقليات أقل تسامحاً وأكثر عنفاً» و «الأقليات تشكل الضحية وتلصق بها كل التهم. وهذا ما حصل مع يهود روسيا. النداء (أضربوا اليهودي، أنقذوا روسيا). يعبر عن اليهودي الطفيلي والاستغلالي المتهم بكل ما حصل في روسيا، لهذا يجب ضربه، عندها يتحسن وضع روسيا» (بارناقي. ص ٢٦) وكأن مصائب روسيا كلها مصدرها اليهود الذين يشكلون أقلية فيها.

وفي معرض حديثه عن أحوال يهود البلاد العربية والإسلامية، فإنه يقدم تناقضاً شديداً في سياقه، وكذلك لا يفوت فرصة كون اليهود ضحية ملاحقة «فلقد نال يهود البلاد العربية مكانة احترام وتقدير وساهموا في الحياة اليومية والاقتصادية والاجتماعية، وعرفت الجاليات اليهودية فترات ازدهار ونمو، ونبغ منها علماء وحكماء معروفون ووصل عدد أبناء الجالية اليهودية في اليمن الى ٨٠ ألف نسمة في نهاية القرن التاسع عشر، ومعظمهم عمل في الحرف والتجارة والتصقوا بالتقاليد الدينية اليهودية وسط معاداة المجتمع المحيط بهم». (بارناقي. ص ٣٠) وتعرض اليهود لمضايقات وملاحقات في الدول العربية والإسلامية مثلاً في ايران والمغرب، وانه رغم ذلك قام الملوك بتوفير الحماية لليهود وتعاطفوا معهم» (بارناقي ص ٣٣).

■ الحركة الوطنية التحريرية الفلسطينية في كل الكتب ينظر إليها من نقطة تطرف وارهاب واظهارها بأنها تقتل وتذبح اليهود كما جرى في الخليل العام ١٩٢٩، على حد وصف هذه الكتب، ويتوجه أحدها إلى أعضاء الحركة الوطنية بمصطلح «الشباب» أي أنهم نفر غير واعٍ وغير مسؤول.

الواضح والثابت أن أوضاع وأحوال اليهود في البلاد العربية والإسلامية كانت أفضل بكثير من أوروبا التي كانت فيها أشكال مختلفة من التطور والتقدم والازدهار. وأكثر من ذلك فإن يهود هذه البلاد (العربية والإسلامية) تمتعوا بمكانة مرموقة وأفسح لهم المجال لتبوّء مراكز مهمة، إذ إنه ما كان بإمكانهم الوصول إلى ذلك لو تمت ملاحقتهم، والحقيقة أن أياً من المؤرخين اليهود لن ينجح في اقحام أفكار لا سامية أو عنصرية على نصوص الحقائق التاريخية المتعلقة بيهود البلاد العربية. واعتبر بارناقي ان من تبقى من اليهود بعد العام ١٩٤٨ في البلاد العربية أصبحوا رهائن بيد سلطاتها، وهو بهذا لم يخرج عن الخط

اليهود بين المسيحية والاسلام/
دروس في التاريخ

السائد في كتب التاريخ، وهذا تشويه وتزييف للحقيقة. (بارناڤي ص ١٢٨).

ونحن نعلم أن اليهود شاركوا في كل مناحي الحياة العامة والسياسة في العراق مثلاً. وكان وضعهم الاقتصادي ممتازاً، ومنهم من وصل إلى الوزارة مثل وزارة المالية، ويشير بارناڤي الى تعرض اليهود في هذا البلد بالذات إلى الحرمان والملاحقة والمضايقة، وحرموا من التعلم في المدارس العليا والجامعات، وهذا في حد ذاته توظيف سيء للغاية في مسألة حقوق وأوضاع يهود العراق، فمعظمهم كسب التعليم العالي وكانوا على مستوى راقٍ ورفيع من الثقافة والعلم (بارناڤي ص ١٢٦). ولا يتنازل المؤرخ اليهودي عن اعتبار يهود العراق وسواهم في البلاد العربية الضحية الأولى أمام أهواء الحكام والبنية المحيطة بهم، وفي نفس الوقت الذي يستعرض فيه هذا الأمر يذكر ان ٥٠٪ من موظفي الحكومة العراقية زمن الحكم الملكي هم يهود. وان ٧٠٪ من التجار العراقيين الكبار هم يهود. وان اليهود قد سيطروا على القطاع التمويني والنسيجي في العراق. (كيدم. م. س. ص١٣٣، وشوريك يحيعام «تاريخ شعب اسرائيل في العصر الحديث» وهو كتاب يعدّ الطالب للتقدم لامتحانات التوجيهي في اسرائيل، والتي تعرف باسم البغروت وشوريك يتنكر للواقع التاريخي ليهود العراق).

وتستفيد كتب تدريس التاريخ من كراسة «بينسكر» أحد رجالات الفكر الصهيوني في أواخر القرن التاسع عشر وعنوانها «الانعتاق الذاتي اوتو امينسيباتسيا» الذي بلور مصطلحاً جديداً يصف وضع اليهود في أوروبا في ذلك القرن، ألا وهو مصطلح «يودوفوبيا» أي «الخوف من اليهود». حيث يقول بينسكر «إن هذا المرض هو انحراف في صحة المجتمع منذ البداية ويصبح مرضاً مزمناً، لذلك لا يوجد له علاج، وهذا المرض وراثي. وهذا وضع أمة أشباح. أقلية دائمة بدون وطن، الشعب اليهودي يفرض خوفاً على العالم لأنه يسير كميت بين الأحياء» (بارناڤي ص ٤٤ ويعقوب كيدم، مختصر تاريخ الصهيونية، ١٩٨٨، ص ٤٠ و ٤١).

واستغلت قضية الضابط الفرنسي، الفريد درايفوس الذي اتهم بالخيانة لنقله أخباراً واسراراً عن جيشه للاعداء الألمان، وقامت قيادة الجيش الفرنسي بتجريده من رتبته ودرجاته العسكرية وأوسمة التقدير التي نالها، ثم أعيدت محاكمته من جديد وأعلنت براءته. والواقع أن استغلال قضية من قبل أطر يهودية جاء للدلالة على كراهية ولاسامية متأصلة بين الفرنسيين ضد اليهود. علماً أن درايفوس هو جندي في الجيش الفرنسي أسوة ببقية زملائه، ونصيبه أنه ترقى في الدرجات العسكرية. ولم يُنظر إليه كيهودي اطلاقاً، ولم يقم بارناڤي بالشذوذ في عرضه لقضية درايفوس عن الخط التدريسي والبحثي السائد في أوساط المؤرخين اليهود على مختلف مشاربهم الفكرية واتجاهاتهم السياسي.

وهذا دليل آخر على الانتقائية الحديثة وتوظيف الحدث لخدمة غائية هي في هذا السياق كون اليهود «الضحية الدائمة» (بارناڤي ص ٤٦). وكان لليهود الروس دور معين في الثورة البلشفية في روسيا وما تبعها من أحداث والقضاء على القيصرية الروسية، وأعلنت الثورة عن الغاء الديانات والمؤسسات الدينية، ولكن بارناڤي يذكر أن الثورة قد أغلقت الكنس والمكتبات والمدارس الدينية اليهودية وأممتها بكاملها، ولكنه لا يذكر اغلاق وتأميم الكنائس والمساجد (بارناڤي ١٠٣ ، ١٠٤). وهو نفسه يشير إلى أن الثقافة اليهودية بشكلها الييديشي قد انتعشت وازدهرت ولاقت عناية خاصة من الدولة ومؤسساتها كالجامعات حيث كانت تدرس.

وفي معرض شرحه للصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني فإن بارناڤي اختار العنوان التالي لهذا الموضوع: الفلسطينيون يديرون حرباً ارهابية ضد اسرائيل» (ص ٢٤٦) وفي الصفحة المقابلة (ص ٢٤٧) يقدم صورة المستوطن ليڤنغر يسير وسط مدينة الخليل بحراسة مسلح، دون أن يشير إلى دور ليڤنغر الارهابي (طبعاً هذا لن يحدث).

وسوف أختار اقتباسات حول الثورات الفلسطينية في سنوات العشرين ثم الثلاثين، وبالطبع لا يشار إلى هذه الثورات هكذا إنما الى اضطرابات وأعمال شغب وحرب عصابات وفرض ارهاب عام. فأثناء أحداث ثورة ١٩٢١، في يافا، نشر العرب فيها اشاعات إلى أن أعمال قتل واغتصاب من قبل يهود ضد نساء عربيات قد نفذت في هذه المدينة، وأن العصابات العربية بدأت بالهجوم على المارة اليهود وقتل

ويوجد لدى مؤلفي كتب التدريس توجه من التخصيص إلى التعميم، ومحاولة اظهار الحدث المتعلق باليهود وكأنه بالضرورة ينعكس على العالم أجمع، خاصة إذا كان الحدث سلبياً كمظاهر اللاسامية، فإقحام الوعي اليهودي والوعي الإنساني معاً في بوتقة واحدة يشكلان برأيهم قاعدة لديمومة التفكير والتذكير بالمحرقة مثلاً وان الضحية لا تزال ضحية.

في هذه الأحداث ٤٣ يهودياً وجرح أكثر من ١٣٠. (كيدم. م. س. ص١٤٧) ولم يتطرق إلى ذكر الجرحى والقتلى العرب أو إلى ردّ فعل اليهود المسلح تجاه العرب). وهذا تأكيداً إلى أن الضحية الدائمة موجودة في كل مكان في العالم، وفي أي زمن فإنها تتعرض للملاحقة والمضايقة. (ليفشيتس موشي، تاريخ شعب اسرائيل في العصور الأخيرة والحركة القومية، الجزء الثاني، ص ٩٠).

الحركة الوطنية التحريرية الفلسطينية في كل الكتب ينظر إليها من نقطة تطرف وارهاب واظهارها بأنها تقتل وتذبح اليهود كما جرى في الخليل العام ١٩٢٩، على حد وصف هذه الكتب، ويتوجه أحدها إلى أعضاء الحركة الوطنية بمصطلح «الشباب» أي أنهم نفر غير واعٍ وغير مسؤول. (ليفشيتس موشي، تاريخ شعب اسرائيل في العصور الأخيرة والحركة القومية. الجزء الأول، ص ١٥٦).

وفي معرض اتهامه لقوات الأمن البريطانية في يافا على أنها لم تمنع وقوع مذبحة «بوغروم» التي نفذها العرب، يذهب ليفشيتس إلى درجة مبالغ فيها حينما يذكر أن العرب أخذوا يطلقون النيران من مآذن المساجد في يافا على أحياء تل أبيب».

الفرادة اليهودية

لا يغفل المؤرخ اليهودي عن الإشارة الى ما يتميز به اليهود في العالم، وانهم فريدون في ما يقومون به «فيهود الغرب وصلوا جاهزين جداً للعصر الحديث المتقدم: فخلال مئات السنين اهتموا عن رغبة أو عن اضطرار بتطوير قدراتهم والتي غدت الآن مطلوبة جداً: عادات التعلم وحرية التفكير، والحركية الدائمة والعمل في القطاعين المالي والتجاري» (بارناقي م. س. ص ١٦).

و«لليهود مساهمة في الحياة السياسية في ألمانيا زمن جمهورية فايمار بعد الحرب العالمية الأولى، حيث احتلوا وظائف ومراكز مهمة في الأحزاب، ودستور فايمار وضعه يهودي وهو رجل القانون هوغو فرويس. واليهود كانوا في موقع تتنافس عليه الأحزاب والأيديولوجيات (بارناقي. م. س. ص ١١٧).

وفي معرض التطرق لأحداث العام ١٩٤٨، النكبة الفلسطينية «فإن السلاح الصغير والقليل الذي كان بيد القوات اليهودية المحاربة كان متدنياً مقارنة مع السلاح الثقيل الذي كانت العصابات العربية مزودة به» (ش. كير شنباوم. تاريخ إسرائيل في الأجيال الأخيرة، ميشلاف، تل أبيب، ١٩٨٦، ص ٢٧٦).

نظرية الإقحام

وتفرض هذه النظرية اقحام وجهة النظر الصهيونية والاسرائيلية في الأحداث للإشارة إلى أن الحدث رغم أنه لصالح اليهود إلا أن ذلك ليس في الواقع الحقيقي. وكذلك التخفيف من أهميته لتوظيف وضعية اليهود الضحية وجني الأرباح منها. وكذلك فإن الاقحام هو قيام جهات صهيونية حتى لو كانت معارضة للانكليز مثلاً بالمساهمة في المجهود الحربي خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، فمحاولة اظهار تصريح بلفور بأنه مهم للإنكليز بالدرجة الأولى أكثر مما هو مهم لليهود، رغم وضوح التصريح بتوجهه لليهود كشعب لإقامة الوطن القومي اليهودي على أرض فلسطين (بارناقي ص ٦٨) أي أنه يراد منه التخفيف من سعي اليهود الحثيث والذي بلغ درجة الوقاحة (هحوتسيا بالعبرية)، وضغطهم على الانكليز لاصدار التصريح، والواقع أن الحاح اليهود وفي مقدمتهم حاييم وايزمان قد ساهم في اصداره.

ويظهر بارناقي أن تصريح بلفور ليس انجازاً مركزياً وفي نظره فإن هذا التصريح [رغم خطورته بالنسبة للفلسطينيين وأهميته بالنسبة لليهود] لا يختلف عن بقية المواثيق الدولية المعقودة في التاريخ. (بارناقي ص ٦٨) ولكن بارناقي بالمقابل يطرح سؤالاً مركزياً يبدو أنه يشغل فكره التاريخي وهو: كيف يمكن تحقيق غاية قومية لشعب ما دون المس بالحقوق المدنية لأبناء الشعب الآخر المقيم في نفس البلد؟.

ورغم أهمية هذا السؤال في اظهار خطورة تصريح بلفور وانعكاساته من حيث كونه يسلب أرض الفلسطينيين ويمنحها لليهود، إلا أن بارناقي

طارح السؤال لم يملك الجرأة الكافية للاجابة عليه. (بارناقي ص٦٩) وما دمنا قد ذكرنا مساهمة فرق يهودية في الجهد الحربي الى جانب الحلفاء، فإن هذه الفرق قد دخلت في السنة الأخيرة للحرب العالمية الأولى على الجبهة العثمانية. وكانت مساهمة هذه الفرق غير جديرة بالذكر، ولكن لإظهار مساهمة اليهود في الجهد العالمي لمواجهة ومحاربة أشرار العالم؛ دول المركز، وفي مقدمتها المانيا فإن بارناقي يذكر مايلي:

«فرقتان من اليهود تمكنتا من الوصول الى جبهة أرض اسرائيل وقدمتا خدماتهما في بعض المعارك الأخيرة لتحريرها» (بارناقي ٧٣) الاقحام التاريخي هنا هو في كلمة «تحريرها» أي التأكيد أن لليهود دوراً في تحرير أرض إسرائيل من الاحتلال العثماني، وان عمليات «التحرير» لم تقم بها بريطانيا وحليفاتها وحدها.

ويقحم بارناقي مصطلح «جبهة الرفض» وهو حديث العهد يعود إلى معارضي خطوة السادات لعقد تسوية مع اسرائيل، يُقحمه بخصوص موافقة عبد الله، أمير شرقي الأردن على توصية لجنة بيل العام ١٩٣٧ الداعية إلى تقسيم فلسطين، فنشأت معارضة لموافقته هذه من قبل سورية والعراق» (ص ٩٣).

وما دمنا قد ولجنا فكرة التقسيم فإن «مشروع بيل يمنح اليهود جزءاً من فلسطين بعكس مطامح اليهود بكل فلسطين، ولكن لأول مرة يجري التأكيد على دولة ذات سيادة لليهود». ويقحم هنا العبارة التالية: «ومن المفضل دولة صغيرة، بالإمكان توسيع حدودها في المستقبل...» (ص ٩٤)، دون أن يشرح كيف ستتم عملية التوسع. ولا شك أنها نظرة توسعية احتلالية. بمعنى أنه نسخ الوضع الحالي للاحتلال الإسرائيلي على ما حدث في الماضي. وهذا اقحام فاضح في حد ذاته.

ويلجأ نفس المؤرخ ـ بارناقي ـ إلى اقحام دون علاقة مع الموضوع المعروض، ولكنه اقحام مقصود حينما يكتب على النحو التالي:

«ثلاثة أشهر قبل افتتاح مؤتمر الطاولة المستديرة بين الفلسطينيين واليهود والانكليز لبحث أوضاع فلسطين عشية الحرب العالمية الثانية نُفذ في يهود ألمانيا بوغروم – مجزرة – عرفت باسم «ليل البلور»، وأثبت قبل ذلك مؤتمر اڤيان في تموز ١٩٣٨ ان المجتمع الدولي لن يعمل لإنقاذ اليهود.. ». (ص ٩٥) لا نجد هنا أية علاقة بين مؤتمر الطاولة المستديرة وما جرى لليهود في ألمانيا سوى اقحام هذا الحدث لإظهار الضحية الدائمة، وللتذكير بأنهم يبغون حلاً لمشكلتهم، ويجب الاسراع في ايجاد مثل هذا الحل، وهو في فلسطين.

ويقحم نفس المؤرخ عبارة وجدتها غريبة جداً عند تطرقه لموضوع النازية والهولوكوست (المحرقة) فيقول: «من الممكن القول إنه دون اليهود لا توجد نازية» (بارناقي ص ١٣٢)، وكأن النازية في أيديولوجيتها ونهجها تعتمد على مصدر قوتها الصادر من اليهود!!!

ويوجد لدى مؤلفي كتب التدريس توجه من التخصيص إلى التعميم، ومحاولة اظهار الحدث المتعلق باليهود وكأنه بالضرورة ينعكس على العالم أجمع، خاصة إذا كان الحدث سلبياً كمظاهر اللاسامية، فإقحام الوعي اليهودي والوعي الإنساني معاً في بوتقة واحدة يشكلان برأيهم قاعدة لديمومة التفكير والتذكير بالمحرقة مثلاً وان الضحية لا تزال ضحية.

«ردود فعل اليهود ذاتها للأحداث المأساوية التي حلت بهم، وسياسة العالم الحر، وكذلك موقع الكارثة في الوعي اليهودي خاصة والوعي الإنساني عامة ـ كل هذا هو جزء لا يتجزأ من موضوع المحرقة» (بارناقي ١٤٧).

ولإظهار ان الخطر هو مسألة دائمة في حياة اليهود، فإن المؤرخ ايال ناڤيه مؤلف الكتاب التدريسي «القرن العشرون ـ قرن غيّر أنظمة العالم» (للوحدة الخامسة في امتحان البچروت صادر عن مكتبة تل أبيب، ١٩٩٥)، يقحم حدثاً تاريخياً مهماً في حياة المستوطنين اليهود فيكتب: «انتصارات رومل وضعت الاستيطان اليهودي في فلسطين في خطر مصيري، من الشمال سيطرت حكومة ڤيشي الفرنسية على سورية ولبنان، ومن الجنوب هددت قوات رومل. زعماء الاستيطان وضعوا خطة دفاعية مشابهة لخطة متسادا في منطقة جبل الكرمل» (ص ١١٣) أي أنه يربط عشرين قرناً ببعضها، ليظهر استمرارية الوجود اليهودي في فلسطين، وفي نفس الوقت ليؤكد تمسك اليهود بأرض ابائهم واستعدادهم للانتحار فداءً لها.

ولا يتوقف الأمر عند ربط أحداث خاصة مع العامة. فإن ناڤيه يقحم عبارات وجملاً بعيدة عن الموضوعية التاريخية، ولا يقف موقف المؤرخ الحيادي الموضوعي. بل بالعكس فإن اقحامه لمثل العبارات التالية ما هو إلا اشارة إلى أسلوب الانتقائية بهدف التأثير على عقول الطلاب ومنهجية تفكيرهم، ففي معرض شرحه عن اليهود في ألمانيا زمن الحكم النازي يكتب:

«دون أدنى شك انه بين القتلى النازيين كان هناك أناس متعطشون للدم وللوحشية، الذين استقوا فرحاً من القتل وتحمل الضحايا، معظم الشعب الألماني لم يشترك مباشرة في أعمال القتل، ولكن هناك من يدعي أنه اشترك في الجرم بشكل غير مباشر لمجرد أنه كوّن مجتمعاً مجرماً في الفترة النازية. على كل حال، اضطر الألمان الى مواجهة الظلال الثقيلة للتهمة الجماعية. كثيرون أظهروا أسفهم ما جرى ولكن

كل واحد منهم كان بإمكانه أن يتذكر جاره اليهودي الذي اختفى فجأة ولم يعد». (ص ١٥٠).

التخصيصية ـ الاحتكارية

تفرض التخصيصية ـ الاحتكارية تبني أحداث معينة لم تحدث لشعب معين واسنادها إلى هذا الشعب، بمعنى التحول من العام إلى الخاص. وليس فقط التبني بل الاحتكار بمفهوم أنه لا يجوز لآخرين أن يسندوا هذا الحدث اليهم، وأكثر من ذلك حتى اسم الحدث يصبح مسألة احتكارية بل شبه مقدسة وتابو لا يجوز لشعوب أخرى الاقتراب من هذه القدسية على الاطلاق. ومن منطلق التخصيصية ـ الاحتكارية فإن كل من يحاول الاقتراب أو يفكر به يتهم بأنه معادٍ لهذا الشعب. وخير مثال لتوضيح التخصيصية الاحتكارية قضية الهولوكوست (المحرقة) وكيفية توظيفها من قبل الدوائر الصهيونية والاسرائيلية في العالم.

«دولة إسرائيل تبنت المحرقة كجزء من الوعي الجماعي فيها. وتجرى محاولات جادة وصادقة لتوثيق الماضي. أقيمت مؤسسة «يادفاشيم» استناداً إلى قانون سنّه الكنيست، بحيث يخصص يوم رسمي لإحياء ذكرى المحرقة، وهناك مواقع ونصب تذكارية موزعة في طول البلاد وعرضها. يوجد معارضون لتفسير قيام إسرائيل بالاستناد إلى مصيبة (كارثة) حدثت لأبناء الشعب اليهودي، بينما كثيرون منهم لم يكونوا صهيونيين ولا يعتبرون أنفسهم مواطنيها. ولكن لا يمكن تصور أن تهمل دولة اليهود المحرقة على الصعيد القومي. والسؤال هو ليس لماذا جعلت دولة اسرائيل المحرقة جزءاً عضوياً من ميراثها، انما ماذا تفعل بهذا الميراث! أي ليس لماذا نتذكر انما كيف نتذكر؟» (بارناڤي ١٦٠).

وفي محاولة لإظهار التاريخ التحرري لليهود فإن كل المؤرخين المؤلفين لكتب تدريس التاريخ يقدمون شرحاً مفصلاً مطولاً حول تمرد اليهود في غيتو وارسو في شهر آذار ١٩٤٣، فأيال ناڤيه يعتبر هذا التمرد حركة تحرر ومعارضة كبقية الحركات التحررية التي ظهرت في أوروبا ابان الحكم النازي مثل يوغسلافيا والاتحاد السوفييتي، أي أنه في باب التخصيص يشير إلى أن اليهود أيضاً كانوا يقظين عبر رفضهم للعبودية ورغبتهم في التحرر. (ص ١٢٣)

وما دمنا في سياق الحديث عن النازية فإن القاء القبض على ايخمان النازي وتقديمه للمحاكمة في إسرائيل وسط ضجة إعلامية كبيرة بهدف إثارة الرأي العام العالمي، إذ إن اسرائيل تحتكر لنفسها مسألة القضاء على النازيين المتبقين باعتقالهم ومحاكمتهم، وان أمر

تاريخ شعب اسرائيل في العصور الاخيرة / موشيه ليشتيس

المحاكمات بات مسألة تخص إسرائيل أكثر مما تخص أوروبا التي تسير في تاريخها من الماضي نحو المستقبل، أي أن النظرة الأوروبية للتاريخ، مضمونها أن ما حدث لن يوقف الشعوب الأوروبية في مكانها، بل بالعكس يدفعها للتقدم والازدهار بأمان وثبات. ولكن النظرة التاريخية الإسرائيلية هي دائماً إلى الوراء ويجب السير باتجاه الماضي لمحاسبة كل شيء، وتطهير التاريخ الإسرائيلي من عالم الأشرار الذي حل فيه.

والهولوكوست ركن أساسي في تعلم تاريخ اليهود في القرن العشرين. فحتى الكتب التدريسية المخصصة لدراسة أحداث القرن العشرين تعالج في بعض فصولها موضوع الهولوكوست. أي اقحام هذا الموضوع ضمن التاريخ العام لإثارة أهمية وضرورة ربطه بشكل تلقائي مع الأحداث العالمية.

«فمحاكمة ايخمان» هكذا يكتب كيرشفباوم «أثارت اهتماماً كبيراً في دولة إسرائيل والعالم، سكان إسرائيل تابعوا باهتمام بالغ سير المحاكمة وتعلموا كثيراً حول أحداث المحرقة. بهذه الطريقة قوي التعاطف بين سكان البلاد ومصير يهود أوروبا. وتجدر الإشارة إلى أن مراسلي الصحف العالمية قربوا شعوب العالم إلى قضايا المصير المأساوي للشعب الإسرائيلي أيام المحرقة» (كيرشفباوم ص، ٣٢٦).

وفي كتاب «ثورات وتحولات» للصف الثامن في المدارس العبرية فإن مؤلفي الكتاب المصادق عليه من قبل وزارة المعارف والثقافة، نعتوا «المستوطنين في أميركا» بـ «اسرائيل الحقيقية» كونهم «يعيشون وفق أقوال الأنبياء ووصايا التوراة» (ص ١٤). وينزع هذا الكتاب وجود سكان أميركا الأصليين ـ الهنود الحمر من صفحاته سوى القول إن المستوطنين قد سيطروا على أراضيهم ودفعوهم باتجاه الغرب. ومقابل هذا التغاضي والتهميش المقصود فإن الكتاب يمنح المستوطنين المستعمرين تخصيصاً احتكارياً من الدرجة الأولى، لأن هؤلاء جلبوا

مختصر تاريخ الصهيونية /تأليف د. مناحيم كيدم

الخير والتقدم والرقي والازدهار ودائماً كانت يد الأبيض هي المتفوقة بسبب توفر الأسلحة المتقدمة لديه. (ص ١٤ وما بعدها).

وفيما لو تعمقنا في هذا التوجه السلبي والتهميش، كما قلنا، نحو السكان الأصليين يتبين لنا انه بعدم التطرق إلى تاريخهم وكفاحهم يسهل على معلم التاريخ وطلابه عدم التطرق إلى تاريخ سكان فلسطين الأصليين، بل تغييبهم بالكلية عن الوجود، كما هو حاصل في كل كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية، احتكار «أرض اسرائيل» كهبة الهية دائمة إلى الأبد!! وإن عودة اليهود هي إلى بيتهم الحقيقي ليعمروه ويطوروه ببركة السماء.

الهولوكوست (المحرقة)

تخصص كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية فصولاً مطولة حول الهولوكوست لكل شريحة صفيّة، بمعنى أن الطالب العبري يواجه هذا الوضع في كل عام دراسي.

وهناك اتفاق غير رسمي بين المؤرخين اليهود على اعتبار الهولوكوست مفصلاً تاريخياً مركزياً في حياة ومستقبل اليهود ودولة اسرائيل. أضف إلى ذلك عمليات توظيف الهولوكوست في كافة المبادئ لتبقى ذاكرة الطلاب الإسرائيليين متعلقة بفكرة الضحية الدائمة. بمعنى أن الهولوكوست حادثة تاريخية حدثت في مكان ما ولكنها لم تنته في حدود الزمن.

ويشدد المؤرخون اليهود على أن الهولوكوست التي حلت باليهود لا شبيه لها في العالم ويعتقدون أنه لن يكون مثلها في المستقبل، أي أن حكمهم المستقبلي قد صدر. مع العلم ان التاريخ لا يتعلل مع احكام تنبؤية مستقبلية. على كل حال يشير بارناقي إلى أن «المحرقة حدث متميز في التاريخ الإنساني» (عنوان فصل في كتابه المذكور سابقاً ص ١٣٢). ويحاول جاهداً تعريف الهولوكوست واضعاً ما حدث لليهود في نواة الحدث، وذلك من خلال استعراضه لمذابح عدة جرت في التاريخ ولدى شعوب مختلفة: «مذابح جماعية واكبت تاريخ الإنسان منذ فجر التاريخ، البشر ذبحوا بعضهم نتيجة خلاف على أرض، بئر ماء، طريقة العبادة وأسباب أخرى، تجارة العبيد أدت الى موت آلاف من بني البشر، الاسبان أبادوا مجموعات بشرية عند احتلالهم أميركا الوسطى والجنوبية.

الأتراك ذبحوا الأرمن في الحرب العالمية الأولى، عشرات ملايين البشر لاقوا حتفهم في معسكرات الاضطهاد التي أنشأها ستالين، في بوروندي في افريقيا نفذت مذابح. في كل هذه الأعمال تحول «الآخر» إلى أقل من انسان. ومع كل ذلك، القتل المنهجي للشعب اليهودي في الحرب العالمية الثانية هو حدث متميز في التاريخ البشري، حدث لم يسبقه شبيه في جوهره واتساعه. فاليهودي لم يكن مجرد عدو، أو حتى عدو منحط إنما جرثومة، وابادته تعني تنقية جسم الإنسانية، هذا الدمج بين المنطق العلمي الجنوني مع جهاز اداري متقدم وتكنولوجي حديث لم يترك باباً لهرب الضحايا، ويمنح الكارثة ميزتها» (ص ١٣٢).

ويشدد هذا المؤرخ - وغيره على المستوى نفسه - على ضرورة التذكر «أن المحرقة ليست من عمل الشيطان، بل عمل منظم ومخطط له بيد البشر، بل كبار رجال الدولة» وان «هذه المحرقة هي جزء من التاريخ البشري، ويجب نقلها وفهمها بأدوات تاريخية» (ص ١٣٢ في نفس المصدر). هنا نلاحظ بوضوح انه يحتكر الحدث المتعلق بالهولوكوست ويطلب منا التعامل مع هذا الحدث بأدوات تاريخية، لم يفصح عنها على الاطلاق.

والهولوكوست ركن أساسي في تعلم تاريخ اليهود في القرن العشرين. فحتى الكتب التدريسية المخصصة لدراسة أحداث القرن العشرين تعالج في بعض فصولها موضوع الهولوكوست. أي اقحام هذا الموضوع ضمن التاريخ العام لإثارة أهمية وضرورة ربطه بشكل تلقائي مع الأحداث العالمية.

ويذهب المؤرخ ايال ناقيه الى اظهار «خصوصية المحرقة بالنسبة لليهود دون سواهم من الشعوب الأخرى التي تعرضت للسكين النازية. فإن أحد الناجين من النازية بريموليڤي كتب في كتابه (الاستراحة) : لأنه لن يستطيع أي إنسان أن يستوعب جيداً مثلنا الاهانة والاذلال التي انتشرت كالوباء، فخطأ هو الاعتقاد ان العدل الإنساني يمكنه النطق» (ص ١٤٣). فهو يصور عظم وضخامة ما حدث لليهود ولن

ويسترسل بارناثي في تصوير دور الجندي العربي بأن لا هدف له سوى خدمة اسياده، والحديث هنا عن حرب ١٩٤٨ «في الجيوش العربية، القادة والجنود الذين انتموا إلى عوالم مختلفة، الفلاح المصري أو العراقي وجد زعماءه وأسياده في الجيش بثياب ضابط. وعيه السياسي قليل، ظروف حياته صعبة، وكرامته مداسة، لماذا يقدم حياته من أجل قضية لا علاقة له بها؟» (بارناثي ص ١٨٧) وهذا التوجه هو في باب تهميش القضية الفلسطينية وتهميش الدور العربي وعلاقته بها.

يكون هناك أي باب لتحقيق العدل الإنساني. هذه طريقة لإظهار مدى الجرم الذي حدث لليهود والذي لا يوازيه جرم مماثل، أو بالأحرى أي جرم يجري في العالم سيكون أقل عظماً مما حدث لهم.

وفي سياق التطرق لمسألة الهولوكوست، فهي كما هو ظاهر لم تنتهِ كحدث تاريخي، بل إن المؤسسة الصهيونية ـ الإسرائيلية تسعى دوماً الى تعميقه، كونه لم ينته بمفهوم الذاكرة ومؤثراته وانعكاساته إلى يومنا هذا. في سياق ذلك توجه كتب التدريس لوماً شديد اللهجة وبوضوح «للذين التزموا الصمت مدعية أن منهم من كان بإمكانه التأثير على مجريات الأمور مثل البابا بيوس الـ ١١ الذي رفض الاستنكار ولم يفرض حرماً على المجرمين» (ناقيه، ١٥١)، دون أن يقدم وجهة نظر البابا أو الكنيسة الكاثوليكية من صمت البابا. فمؤلف كتاب التدريس هذا وهو باحث ومحاضر في جامعة تل أبيب لم يقدم الأداة العلمية البحثية في هذا الموقف أسوة بمواقف أخرى بيّنا بعضاً منها وسنبين البعض الآخر. وهذا دفعني إلى فحص مواقف البابا فاستعنت بقاموس اوكسفورد لشؤون كنيسة المسيحيين الذي يشير الى صمت البابا بيوس النابغ من خبرته الشخصية في تعامل الحكومة الألمانية مع مسيحيي بولندا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، وان اثارة الموضوع ستكون له ردود فعل سيئة أكثر من الصمت عنها.

(F. L. cross. The Oxford Dictionary of the christian church oxf. Uni. London, 1974, p. 1098 - 99)

ويتابع ناقيه في سلسلة اتهاماته إلى أن يصل إلى منظمة الصليب الأحمر التي عرفت ما كان يجري ولكنها منعت نشر الأخبار. وهذه المرة دون أن يفسر أسباب ذلك. وكذلك زعماء دول في أوروبا أغلقوا حدود بلادهم ورفضوا ادخال اليهود إليها قبل حلول الهولوكوست.

وتتسع القائمة لديه ليضم ملايين كثيرة من الناس الذين صمتوا كالتجار الذين ربحوا من مصادرة أموال اليهود. والمحاضرين الذين احتلوا أماكن اليهود في الجامعات والموظفين وسائقي القطارات الذين عرفوا «البضاعة» التي كانوا ينقلونها وأصحاب المصانع الذين زوّدوا الغاز، والمهندسين الذين أصلحوا أفران الغاز والمحارق وكثيرين غيرهم.. (ناقيه ص ١٥١).

وبالمقابل يقول إن «قليلين خاطروا بأنفسهم أخفوا يهوداً أو هربوا أسلحة الى الغيتوات. منهم رهبان وكهنة وفلاحون بسطاء وسياسيون ورجال جيش» (م. س. ص ١٥١). ويختتم اتهاماته بموقف غريب إذ يقول: «ومن الصعب فهم ومعرفة ما دوافع هؤلاء الناس الى الشذوذ عن الصمت، يجوز أنهم فعلوا ذلك من منطلق إنساني وأخلاقي» (ص ١٥١). حتى أنه لا يقبل ما فعله أناس أصحاب ضمير عرضوا حياتهم للخطر في سبيل انقاذ مجموعات من اليهود. فالتنكر للخير سمة في كتب التدريس، وكذلك اعتبار الخير شذوذاً.

العربي والفلسطيني في كتب تدريس التاريخ

تسعى كتب التدريس العبرية الى انكار وجود الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين بل وفي العالم، حتى الكتب التي صدرت حديثاً في العقد الأخير من القرن العشرين. فكتاب «كيدم» والصادر في العام ١٩٨٨ لم يذكر عبارة «الشعب الفلسطيني» على الاطلاق، بل ذكر «العرب في أرض اسرائيل» بينما يُعبّر في هذا الكتاب وغيره عن اليهود بعبارة «الشعب اليهودي».

ويعتبر ايال ناقيه في كتابه «القرن العشرون ـ قرن غيّر أنظمة العالم»، وصدر في العام ١٩٩٥، ان الفلسطينيين هم طائفة عربية تشكل أغلبية في أرض اسرائيل. أي أنه يتحاشى استخدام عبارة «شعب» بل يعمد إلى تهميش الفلسطينيين لطائفة. والطائفة ليس لها كيان قومي، وهذا أساسه في التصور الصهيوني لسكان البلاد. ومن ثم تم التعبير عنه في عبارات تصريح بلفور. (ايال ناقيه ص ١٩٩).

ويحاول ناقيه تقديم صورة قاتمة للعرب الفلسطينيين مجرداً اياهم من القومية وامكانية تطويرهم البنى التحتية. ويشدد على أن هؤلاء العرب يمتلكون شعوراً انتمائياً ضيقاً في حدود الدين «عرب أرض

اسرائيل مثل العالم العربي كله، كانوا مجتمعاً تقليدياً. مصطلح القومية لم يصل إليهم بشكل عام، لهذا لم تتطور لديهم مؤسسات قيادة أو بنية سياسية حديثة ونظام تعليمي وتربوي يساهم في بلورة الوعي القومي. معظم أبناء الطائفة عاشوا في ظل عائلات غنية وميسورة وذات نفوذ، والشعور الديني هو على قاعدة دينية (اسلامية) واثنية (عربية) دون المركب القومي الحديث» (ناڤيه ص ١٩٩).

ومقابل هذا التضييق الانتمائي الذي يفرضه مؤلف كتاب تدريسي للمدارس العبرية، فإنه لا يترك الأمر فارغاً بالنسبة للطرف الأساسي في فلسطين كما يتصور، الا وهو «الشعب اليهودي» : «فمقابل هذا المبنى (المجتمع العربي) ظهر الاستيطان اليهودي كجماعة سياسية وحضارية ذات وعي قومي ودعم صهيوني خارج أرض اسرائيل. البنى الاقتصادية والسياسية والتربوية والاجتماعية التي ظهرت وتطورت في حركة الاستيطان في سنوات العشرين والثلاثين حول اليهود الى جيل يقيم «الدولة على الطريق». (ناڤيه ص ١٩٩).

وتصور كتب تدريس التاريخ الإنسان العربي في فلسطين بشكل وحشي تنقصه أسس الحضارة والتطور، وان هذا العربي لا يملك من القيم والفضائل أي شيء على الاطلاق، وأن كل زعماء العرب هم متطرفون. ففي الحديث عن ثورة ١٩٢٩ في فلسطين والتي يطلق عليها المؤرخون اليهود عبارة «اضطرابات» تم تصوير الحاج أمين الحسيني بـ «الزعيم المتطرف» (كيدم. م. س. ص ١٦٥) ويصور هذا المؤلف النزاع حول «الحائط الغربي» (البراق) بالشكل التالي: «انتبه رجال شرطة من العرب العام ١٩٢٥ ان اليهود أثناء صلوات يوم الغفران قد وضعوا كراسي للجلوس عليها [وهذا منافٍ للستاتوس كو المتعلق بالاماكن المقدسة في القدس ـ عبارة توضيحية مني. ج. م). فأخرجوا الكراسي بالقوة. أما المسلمون ففتحوا ثغرة في أحد الجدران القريبة من الحائط ودخلوا من خلاله راكبين على حمير أثناء تأدية اليهود لصلواتهم وهم يلقون بأوساخ في كل أنحاء المكان المقدس». (كيدم. م. س. ص ١٦٧).

ويتابع نفس مؤلف الكتاب التدريسي «مختصر تاريخ الصهيونية» الدكتور مناحيم كيدم وصفه لتصرفات العرب «وخاصة يوم الغفران العام ١٩٢٨: وضع حاجز بين النساء والرجال في ساحة الحائط، أمر نائب حاكم القدس اليهود بإزالته، فرفض اليهود تنفيذ الأمر، فأرسل شرطيون لتنفيذ أوامره، وهؤلاء أزالوا الحاجز بالقوة وضربوا النساء والشيوخ، وأُلقيت أدوات الصلاة في كل مكان» ويود كيدم أن يظهر أن اليهود يحافظون على قدسية الأماكن المقدسة بطريقة الوصف السلبي للطرف الآخر «فالعرب أهانوا الساحة بواسطة دخولهم راكبين الحمير، رغم أنهم يعتبرون المكان مقدساً لهم، فهذه ساحة البراق. فأقام العرب لأول مرة قرب الحائط العام ١٩٢٩ صلاة، تخللتها صرخات وقرع طبول في نفس الوقت الذي أقيمت فيه صلاة يهودية قرب الحائط» (كيدم. م. س. ص ١٦٧). وليظهر عدوانية العرب ونظامية اليهود فإنه يشير إلى أن «٣٠٠ يهودي شاب قاموا بمظاهرة هادئة ومرخصة في شوارع القدس. وفي الغد وصل ٢٠٠٠ من العرب ليشاركوا في مظاهرة مرخصة هي الأخرى. هؤلاء تجمعوا حول الحائط وأخذوا ينادون «الله أكبر» وانقضوا على اليهود المصلين وحطموا طاولات عليها أوانٍ دينية وحرقوا كتب التوراة». (كيدم. م. س. ص ١٦٧)، وطبعاً هذا التصوير بعيد عن الحقيقة وتشويه للحدث التاريخي كما جرى.

وحول نفس أحداث ثورة ١٩٢٩ وجدت في كتاب «كيدوم لتحضير الطلاب لامتحانات البغروت في تاريخ شعب اسرائيل» (وهو ليس كتاباً تدريسياً إنما مساعد) وجدت توجهاً موضوعياً قريباً جداً من الواقع، «عندما ظهر الخلاف حول صلاة اليهود في الساحة الضيقة للحائط الغربي، والتي كانت وقفاً إسلامياً، ظهر التوتر بين المسلمين واليهود، هذه كانت أحد دوافع انطلاق الأحداث فيما بعد. واثارت صلوات اليهود الجماعية في ٩ آب (ذكرى خراب الهيكل) العام ١٩٢٧ بين المسلمين الخوف من أن اليهود يرغبون في السيطرة على جبل الهيكل ومن ثم هدم ساحته، أعمال تحريض من قبل جهات عربية ويهودية زادت التوتر أكثر وأكثر» (ص ٢٢٢).

وتستخدم كتب التدريس عبارات استهزاء واساءة وسلبية عندما تصور رد فعل العرب في فلسطين تجاه ما يجري من سلب ونهب لأرضهم ووطنهم. فبارناڤي يصف ما قام به العرب العام ١٩٢٠ بأنه «هجوم عربي» و«تخريب» مستوطنات يهودية في الجليل الأعلى. (ص ٨١) ويصف الحركة الوطنية العربية بأنها تحريضية (ص ٨٣) والمفتي هو محرض الجماهير في القدس ضد اليهود الذين يسيطرون على الأماكن المقدسة الإسلامية. (ص ٨٣). والواقع التاريخي للقدس يشهد بكل تأكيد أن ما تقوم به اسرائيل والجمعيات والحركات العنصرية فيها في محاولة للسيطرة على الأقصى والصخرة كان مخططاً له بدراسة مستفيضة من عقود طويلة، وما رد فعل المفتي والمسلمين والعرب في فلسطين وخارجها إلا لإنقاذ الأماكن المقدسة والحفاظ عليها كحفاظ الإنسان على أولاده وبيته. ويربط بارناڤي التطور القومي للعرب في البلاد بازدياد أعمال الارهاب ضد الانكليز واليهود (ص ٩٢) وذلك بزعامة الحاج أمين الحسيني. أما حركة عز الدين القسام التحريرية فهي عبارة عن تنظيم ارهابي (ص ٩٢)، ولا يجرؤ على نعت الحركات الارهابية اليهودية كمنظمات الهاغاناه والايتسل والليحي بالارهاب،

علماً ان هذه التنظيمات عملت بشكل اجرامي وتخريبي ضد الانكليز والعرب معاً خلال فترة الانتداب، بل انه يصف هذه الحركات بأنها تحريرية وتحمي المستوطنين اليهود القادمين من أوروبا.

ويذهب إلى أكثر من ذلك في سلبيته تجاه العرب إذ إنه يقول «إن التطرف الذي وصلت إليه الهاغاناه سببه معارضة العرب الشديدة والعنيفة» (بارناڤي ص ٩٨). أي أن الهاغاناه كانت واقفة تنتظر تحرك العرب لتتعامل بعنف وتطرف!!!.

ولا يتوقف بارناڤي عند هذا الحد من تصوير العرب كبدائيين وهمجيين، بل إنه يطرح سؤال التشكيك، والمقصود من ورائه زرع أفكار استعلائية واستهزائية لدى الطلاب اليهود بخصوص الفلسطينيين، وهذا السؤال ليس حديث العهد بل نجده في معظم كتب التدريس، ولكن أن يكون موجوداً في كتاب تدريس في مرحلة ما يسمى بالمسيرة السلمية، فهذا أمر لا يدل إلا على شيء واحد: ان المؤسسة الإسرائيلية سائرة في نفس منهجية الصهيونية منذ تأسيسها. والأنكى من ذلك أن حكومات إسرائيل تطالب السلطة الوطنية الفلسطينية والدول العربية بحذف كل العبارات والجمل التي تشوه اليهود واسرائيل. والسؤال التشكيكي هو: «متى ظهرت أمة فلسطينية مستقلة وواعية لذاتها؟ إن الفلسطينيين يدعون أن جذورهم في هذه البلاد عميقة أكثر من اليهود». ثم يطرح وجهة نظر أن الفلسطينيين يتشكلون من مجموعات وأجزاء أمم، بينما لا يتطرق الى تركيبة اليهود في اسرائيل ذاتها من أمم وشعوب وطوائف قدمت من كل أصقاع الدنيا. ويدّعي بارناڤي أيضاً ان الفلسطينيين لم يفكروا باتجاه قومي إلا بعد أن ظهرت الصهيونية، وطرحت فكرة اقامة الوطن القومي اليهودي. (بارناڤي ص ٢٤٤) ويذهب مؤلف الكتاب التدريسي هذا الى أخطر من ذلك حين يقول «إنه ظهر في الاونة الأخيرة ما يشبه «صهيونية» فلسطينية !!! تتمثل بالشوق والحنين لفلسطين، وعيش حياة وظروف معيشية قاسية في الشتات، وان الحياة في فلسطين بالنسبة للفلسطينيين اللاجئين هي ما يشبه الجنة المفقودة» (ص ٢٤٤).

ويسترسل بارناڤي في تصوير دور الجندي العربي بأن لا هدف له سوى خدمة اسياده، والحديث هنا عن حرب ١٩٤٨ «في الجيوش العربية، القادة والجنود الذين انتموا إلى عوالم مختلفة، الفلاح المصري أو العراقي وجد زعماءه وأسياده في الجيش بثياب ضابط. وعيه السياسي قليل، ظروف حياته صعبة، وكرامته مداسة، لماذا يقدم حياته من أجل قضية لا علاقة له بها؟» (بارناڤي ص ١٨٧) وهذا التوجه هو في باب

القرن العشرون تاريخ شعب اسرائيل في العصور الاخيرة / تأليف: ايلي بار ناڤي

تهميش القضية الفلسطينية وتهميش الدور العربي وعلاقته بها.

ويبلغ الأمر بهذا المؤلف إلى القول أن «المشكلة الفلسطينية سوف تسمم خلال جيل وأكثر علاقات اسرائيل مع العالم العربي والمجتمع الدولي» (ص ١٩٥).

التهميش التاريخي

يلجأ معظم مؤرخي اسرائيل الى التهرب من القضايا والمسائل التاريخية التي تظهر اسرائيل واليهود بمظهر الظالم والعنيف. لهذا جرت عملية تبني «الضحية الدائمة» واستخدام واستغلال «الهولوكوست» كمأتم لا ينتهي. ومن بين القضايا المركزية التي يتهربون منها كل ما له علاقة بأحداث نكبة ١٩٤٨ والجرائم والمذابح التي نفذت خلالها وبعدها. بل يتم تصوير ما جرى كأحداث عابرة لا ذنب لليهود فيها. ولتوضيح هذا الجانب قمت باختيار مذبحة دير ياسين كنموذج لذلك.

يصف كيدم في كتابه «مختصر تاريخ الصهيونية» المذبحة على النحو التالي: «خلال حملة نحشون خرجت من القدس قوة من رجال الايتسل والليحي قوامها ١٢٠ رجلاً، واحتلت قرية دير ياسين غربي القدس. خلال أعمال الاحتلال قتل ٢٤٥ مواطناً عربياً، بينهم نساء وأطفال كثيرون، الدعاية العربية اشاعت وصفاً لمذبحة دير ياسين بهدف إثارة العرب للانتقام. هذا سبب هرباً جماعياً للعرب من قراهم» (ص ٢٦١).

ويتطرق كيرشنباوم في كتابه «تاريخ اسرائيل في العصور الأخيرة» إلى المذبحة بقوله: «في ١٩٤٨/٤/٩ خرجت مجموعة من قوات ايتسل وليحي بمهاجمة القرية العربية دير ياسين التي أزعجت وضايقت سكان

ثورات وتطورات / دروس في التاريخ للمدارس الرسمية

غربي القدس اليهودية. وفي الهجوم قتل ٢٠٠ شخص من سكان القرية بينهم نساء وأطفال، انتشرت أخبار العملية في العالم كعملية قتل دون تمييز، واستغلت لدعاية رهيبة ضد الاستيطان العبري. وكان للاعلان عنها تأثير على العرب: زادت من الخوف بينهم وأدت الى انهيار الجبهة الداخلية والى هرب كثيرين من بلدانهم وخاصة القريبة من المستوطنات العبرية» (كيرشنباوم. ص ٢٧١).

وفي اجابة لسؤال بجروت حول الصعوبات التي واجهها الاستيطان اليهودي في المرحلة الأولى من «حرب الاستقلال» وكيفية التغلب عليها والتحولات في نيسان وايار ١٩٤٨ فإن كتاب التحضير لامتحانات البجروت لا يتعرض اطلاقاً لمذبحة دير ياسين، وكأنها لم تحدث علماً انها دبت الهلع في نفوس الفلسطينيين (ص ٦٦).

أما موشي ليفشيتس مؤلف الكتاب التدريسي «تاريخ شعب اسرائيل في العصور الأخيرة – الحركة القومية» الجزء الثاني، ص ٩٦، فيصف مذبحة دير ياسين ونتائجها على النحو التالي:

«حملة نحشون (وهي الحملة العسكرية التي قادتها الهاغاناه ضد قرى القدس) ترتبط بقضية ذات قيمة عسكرية جانبية جداً، ولكنها ذات أصداء شعبية واسعة النطاق». ويعترف ليفشيتس «ان دير ياسين هي قرية عربية قرب القدس طلبت عقد معاهدة عدم اعتداء بينها وبين الهاغاناه في جبعات شاؤول. الايتسل والليحي قررتا احتلال القرية لأن القرى المحيطة بدير ياسين قد تركها أهلها. في ٩ نيسان هاجم ١٢٠ عنصراً من الايتسل والليحي القرية. ادعى الايتسل فيما بعد انه نادى على النساء والأولاد والمسنين ودعاهم الى ترك القرية. أثناء الهجوم قتل ٢٤٥ شخصاً عندما قام الايتسل بتفجير بيوت القرية. على سكانها، الايتسل يدعي انه قبل التفجير قام بفحص البيوت للتأكد من أن أحداً غير موجود فيها».

صحيح أن المؤلفين كيدم وكيرشنباوم وليفشيتس تطرقوا بجمل هامشية لمذبحة دير ياسين إلا أنهم متفقون في أمرين مركزيين، الاول: لم يوجهوا تهمة القتل للمهاجمين، وانه خلال الهجوم قتل كذا وكذا. مع العلم أن رجال عصابتي الايتسل والليحي قد دخلوا بيوت القرية وذبحوا رجالها ونساءها وأطفالها وشيوخها، ونفذوا تفجيرات وعمليات اغتصاب رهيبة جداً. (لقد كتب الباحث د. وليد الخالدي كتاباً حول دير ياسين أصدرته مؤسسة الدراسات الفلسطينية شرح خلاله باسهاب عملية تنفيذ المذبحة، وذلك بالاعتماد على الوثائق المتوفرة وعلى شهادات شهود العيان من أهالي البلدة. والدراسة تدحض الادعاءات الصهيونية والاسرائيلية بأن العملية جاءت كرد فعل لاعتداءات أهالي دير ياسين على أحياء القدس الغربية، خاصة ان اتفاقاً لعدم اعتداء، وتعاون، تم بين أهالي دير ياسين والأحياء اليهودية).

والأمر الثاني: ان أصداء وأخبار دير ياسين كانت عاملاً في هرب العرب من البلاد. ولكنهم لم يذكروا أن منظمتي الايتسل والليحي استخدمتا مكبرات الصوت لتذيع من خلالها أصوات بكاء وعويل نساء وأطفال دير ياسين من خلال السيارات التي تجولت في مدن فلسطين كحيفا مثلاً (يشير الباحث الفلسطيني الياس خير الى هذه الظاهرة في كتابه «التغييب» ١٩٤٨، ص ١٦٨).

وكتاب بارناقي لا يذكر مذبحة دير ياسين على الاطلاق، وكأنها خارجة من سياق تسلسل الأحداث التاريخية والمصيرية في فلسطين، واخراجها يمنح الكاتب فرصة تهميش مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حينما يعترف بوجودها وأنها مؤلمة، ولكنه يدعي أن الوضع الديمغرافي قد تغير خلال عشرين شهراً من حرب ١٩٤٨، بحيث هرب عرب فلسطين وخلفوا وراءهم بيوتهم وأراضيهم. (ص ١٩٤ وص ١٩٥) ولا يقدم أي ذكر أو شرح للمجازر والتفريغ والتدمير الذي نفذته جيوش اسرائيل في البلاد حيث تم تدمير المدن الفلسطينية وسحقها بالكامل كي لا تقوم قائمة لحياة المدينة الفلسطينية، وكذلك تفريغ هذه المدن من أهلها الذين كانت لهم مساهمة في بناء الحضارة الفلسطينية الحديثة.

ومسألة تهميش الوجود الفلسطيني المتجذر والقرى والمدن التي هجر أهلها ودمرت لا يرد ذكره في أي كتب تدريس على الاطلاق. وكذلك تجري عملية تهميش للدور الاسرائيلي في النكبة. بمعنى أن اسرائيل لم تكن السبب في وقوع النكبة. أصحاب النكبة هم المسببون

لها وعليهم تحمل تبعاتها. وان اسرائيل «بريئة من دم هذا الصديق».

إيال ناڤيه في كتابه التدريسي يهمش دور اليهود وإسرائيل، ويحمّل العرب أسباب مصائبهم بقوله: «حرب الاستقلال بدأت قبل إعلان الاستقلال رسمياً من خلال الصراع الدموي بين عرب أرض اسرائيل وبين الاستيطان العبري، العرب الذين تمتعوا بالتفوق الديمغرافي والطوبوغرافي (المواقع)، قطعوا مناطق في الجليل والنقب وحوالي القدس عن المركز والسواحل، وهاجموا أحياء ومواقع يهودية في المدن المختلطة. ولكن القوات اليهودية أخذت الأمور بجدية، وقررت تغيير الصورة العسكرية. لهذا فإن سكان البلاد العربية لاذوا بالفرار الجماعي وهزم الاستيطان العربي في أراضي إسرائيل». (ص ٢٠٣). طبعاً، نلاحظ تشويه الحقائق التاريخية المتعلقة بالتفوق العسكري الصهيوني من حيث عدد المقاتلين والأسلحة التي كانت متوفرة لدى الفرق والعصابات، بينما افتقد الفلسطينيون الى الأسلحة، والتي وإن وعدوا بها فقد جاءتهم متأخرة، وكذلك نوعيتها لم تكن جيدة وصالحة للاستعمال والصمود أمام الآلة الصهيونية.

ويتهم العرب بالاعتداء على الاستيطان العبري، وأن العرب قطعوا أوصال فلسطين، وبهذا فإنهم فصلوا تواصل الاستيطان العبري عن بعضه.

ولكن الحقيقة التاريخية تشهد على أن العصابات والفرق الصهيونية استندت الى خطط عسكرية لتمزيق الاستيطان العربي وتطويقه ثم الاجهاز عليه، وهذا ما جرى في فلسطين في الفترة الواقعة بين تشرين الثاني ١٩٤٧ وايار ١٩٤٨.

ولا تتوقف عملية تهميش الواقع ودور الفلسطينيين أو اسرائيل بما يتلاءم ومصلحة إسرائيل عند اقامتها العام ١٩٤٨. بل إن عدداً من المؤرخين الإسرائيليين يستخدمون هذا الأسلوب خلال حديثهم عن أن «حكومة إسرائيل اشترت أراضي لأهداف عديدة: اشترت في الناصرة ١٢٠٠ دونم، وذلك لإقامة البلدة اليهودية، الناصرة العليا، واشترت ٢٠٠٠ دونم لمشروع المياه القطري، واشترت ٥٥٠٠ دونم لاقامة مدينة كرميئيل، وبضع عشرات آلاف الدونمات جُعلت أحراشاً ومحميات. هذه الأعمال أثارت غضب العرب ولكن سرعان ما خبت عندما تم تعويضهم بالمال أو بأرض بديلة» (كيرشنباوم ص ٣٣٨).

ما نراه ونلاحظه هنا هو تهميش لجرائم اسرائيل في الاستيلاء على الأراضي ومصادرتها وتسبيبها في أحداث يوم الأرض الخالد. هذا التهميش يصحبه تنكر تام لقضية الصراع حول الأرض، ولأطماع الصهيونية في الأرض الفلسطينية ولا يتوقف الأمر عند التنكر فقط، بل يستخدم أسلوب الوقاحة (حوتسپا بالعبرية) بادعاء ان الحكومة اشترت أراضي، أي أن المؤلف لا يريد عن قصد أن يعلم الطلاب الاسرائيليين «مصطلح مصادرة»، لأنه في حال تعلمه هذا المصطلح سيعرف جواب من يُصادر أرض من؟ الدولة تصادر أرض الفرد، وليس الفرد الذي يصادر الأرض.

الفوقية التاريخية والحضارية

تعتمد الفوقية التاريخية على اظهار التميز الحضاري لشعب أو فئة ما، وكل فوقية تاريخية هي توجه عنصري، بحيث يرفع من مكانة الشعب الذي يعتبر نفسه الأفضل والمتفوق ويحط من قدر الشعوب الأخرى. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تسعى الفوقية الى اعتبار الآخر غريباً وبدائياً وبعيداً عن أسس الحضارة الصحيحة. ويصل الأمر بالنظرة الفوقية إلى حد تبني الأساليب العلمية والتنفيذية كالتوسع الاستعماري والاحتلالات، عندها يتذرع الشعب المتفوق انه مرسل لتبليغ الحضارة التي لديه الى شعوب أخرى، أسوة بما فعلت أوروبا برسالة الإنسان الأبيض لشعوب القارات الجنوبية افريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا.

وتنطلق الفوقية التاريخية اليهودية والصهيونية الاسرائيلية مجتمعة من نظرة توراتية في أساسها، بحيث تعتبر التوراة الشعب العبراني «شعب الله المختار»، وبقية الشعوب هم «غرباء» (غوييم).

هذا الاعتبار له تأثيرات عميقة جداً ويحمل أبعاداً مستقبلية، بحيث تجلى مصطلح «شعب الله المختار» في صور وأشكال ومظاهر عديدة على كافة المستويات السياسية والثقافية والاقتصادية والعلمية والاختراعية على مرّ العصور.

وبارناڤي كباحث له مكانته في الأكاديمية الإسرائيلية يعرف جيداً ما هو موجود في سجلات أرشيف الجيش الاسرائيلي، ويعرف جيداً أن ما حدث في القبية هو جريمة ومجزرة أثارت ردود فعل شديدة في العالم.

ولقد جندت النظرة الفوقية اليهودية لخدمة التاريخ الصهيوني والاسرائيلي من خلال اعلاء شأن مكانة اليهود والحط من مكانة سكان فلسطين الأصليين، أي: الفلسطينيين العرب، وأكثر من ذلك سعت المؤسسة الصهيونية والإسرائيلية الى تربية الأجيال اليهودية على هذه الفوقية فتجذرت وتعمقت لديهم مما خلق في عقول الطلاب والدارسين أنه لا يوجد في هذه البلاد سوى اليهود، ومن هو غير يهودي لا حقوق له على الاطلاق. وهذا التوجه آخذ في الازدياد سنة بعد أخرى.

سنورد هنا نصوصاً من كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية

التي تشير بوضوح تام الى هذه النظرة مرفقين النصوص ببعض التحليلات.

تورد معظم كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية مقطوعات ونصوص من كتابات هرتسل. وفي احدى الفقرات المقتبسة عنه والتي يوردها بارناقي يجري هرتسل مقارنة بين وضع العرب في فلسطين وكيفية تحول أوضاعهم وأوضا ع فلسطين بعد مجيء اليهود. فيظهر من خلال هذا النص التفوق اليهودي في كافة المجالات على العرب، وان اليهود هم الوحيدون الذين يمنحون العرب السعادة والكرامة.

«لا يوجد منظر بائس وكئيب ومثير للشفقة كمنظر قرية عربية في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر. سكن الفلاحون في بيوت من طين، لم تكن مناسبة حتى للبهائم. الأطفال ملقون في الساحة عراة دون رعاية وتعاملوا معهم كالبهائم.

ولكن الآن كل شيء تبدل.. جففت المستنقعات، وحفرت القنوات لتسريب المياه العفنة، وزرعت أشجار الكينا التي تشفي الأرض. انظر الى هذه القرية العربية، هذا المسجد الصغير، الناس البسطاء أصبحوا سعداء أكثر من قبل، يعيشون بكرامة وأولادهم أصحاء ويتعلمون.. فقط نالوا حسنة...» (بارناقي ص ٧٦ عن كتاب التنويلاند «الأرض القديمة الجديدة» لهرتسل).

وفي معرض حديثه عن احتلال العمل العبري فإنه يقول «إن اليهود قدموا إلى أرض إسرائيل للعمل بأنفسهم وبايديهم في الأرض. واحتلال العمل من أيدي العرب» (بارناقي ص ٥٧) أي ان قدوم اليهود كان أمراً سيؤدي حتماً الى تحويل العرب الفلسطينيين الى فاقدي الأرض ومتعلقين بالتالي بإمكانية العمل لدى القادمين اليهود. وهذا هو في حد ذاته المخطط الصهيوني: نهب الأرض والاستيلاء عليها ثم اقتلاع سكانها أو تحويلهم إلى خدم.

وما أن يصل بارناقي إلى الحديث عن الوحدات العسكرية العبرية الأولى خلال الحرب العالمية الأولى، فإنه يشدد على التفوق العسكري العبري: «على المدى القريب، وخاصة عندما حقق الصهيونيون تصريح بلفور، كان من المحبذ إظهار رغبة في المشاركة في تحرير البلاد، وأكثر أهمية من ذلك: على المدى البعيد. الواقع المزري للوحدات اليهودية سيطوى ويُنسى وتطفو مكانه أسطورة البطولة اليهودية المتجددة» (بارناقي ص ٧٣). ما القصد من أسطورة البطولة اليهودية المتجددة؟! أي ان هذه البطولة كانت موجودة ومتجذرة في الوعي التاريخي والعسكري اليهودي كحادثة «متسادا» مثلاً (رغم كل الشكوك حولها) وجاء الوقت لاشعال جذوة هذه البطولة.

وكما ذكرنا فإن الفوقية تملك مساحة واسعة من اظهار ذاتها «فاليهود برزوا في مجالات كثيرة بفضل قدراتهم ومقدراتهم مما أثار غيرة وحفيظة المسيحيين» (ليفشيتس. تاريخ شعب إسرائيل في العصور الأخيرة، الجزء الأول، ١٩٨٥، ص ١٣).

والعرب لديه في درجة متدنية انسانياً وحضارياً «فمنذ القرن السادس عشر كانت اسرائيل جزءاً من الامبراطورية العثمانية، وتميز حكم الأتراك بثورات البدو ضد الحكم المركزي، وصراعات بين الحكام الأتراك، وتميز هذا الحكم بكثرة أعمال السلب والسرقة والنهب والقتل وتدني مستوى الأمن على طرقات البلاد وتوجه معادٍ من قبل الحكم التركي لليهود في أرض اسرائيل». (ليفشيتس، م. س. ص ٢٨).

وعند تطرقه إلى شكل العلاقات بين اليهود والعرب في أواخر القرن الـ ١٩ فإن ليفشيتس يجعلها بعيدة عن الطابع القومي، مشيراً الى أنه كانت هناك نزاعات على خلفية حراسة وحدود الأراضي والقطعان والرعاية وحتى مسألة عدم فهم اللغة والعادات، وبرأيه فإن السكان العرب كانوا بأغلبيتهم فلاحين، ينقصهم الوعي السياسي القومي (ليفيشيتس. م. س. ص ٤٢). ولكنه يناقض ذاته في نفس الصفحة ٤٢ بقوله: «نجد بعض العلامات والاشارات في نفس الفترة لتحركات قومية عند العرب، خاصة بعد نمو خوف العرب من سيطرة اليهود على أراضيهم».

ونحن نعلم علم اليقين ان العرب الفلسطينيين قد بدأوا يعون مخاطر الصهيونية وأساليبها في نهب الأراضي دون أن تكون لهم بدايات في الفكر القومي. فنهب الأرض وسلبها يدفع الإنسان الفلسطيني الى الدفا ع عن أراضيه بكل قواه. وعندما انطلقت الدعوات إلى مواجهة الخطر الصهيوني وكان أولها دعوة نجيب نصار محرر جريدة الكرمل أخذت المعارضة الفلسطينية تقوى وتتسع في هذا المجال.

وعندما ازداد سيل المهاجرين اليهود خلال الثلاثينيات الى فلسطين أخذوا يشكلون حوالي ثلث سكانها «وهذا الثلث هو الأكثر تنظيماً والأكثر تأسيساً والأكثر ثقافة والأقوى جداً» (حسبما يكتب ليفشيتس في كتابه السابق الجزء الأول ص١٢٧).

وحول موضوع النكبة العام ١٩٤٨ فإن كتب تدريس التاريخ في المدارس العبرية تتهرب من الحقائق التاريخية الواقعية وفي مقدمتها تدمير المدن والقرى الفلسطينية، والتسبب في مشكلة اللاجئين، سواء ما يسمى لاجئي الداخل (الغائبون الحاضرون بحسب القانون الإسرائيلي الغريب والعنصري) ولاجئي الشتات. وتتهرب هذه الكتب من الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في أرضه ووطنه، بل إنها ـ هذه

الكتب حتى الحديث منها ـ لا تزال تنظر إلى الفلسطينيين خاصة والعرب عامة نظرة فوقية لا إنسانية على الاطلاق. فكتاب بارناڤي الذي يتوخى أنه يقدم وجبات جديدة على مائدة تدريس التاريخ ورغم تعرضه لمعارضة شديدة من قبل جهات في وزارة المعارف الإسرائيلية إلا أنه ينظر إلى حرب ١٩٤٨ على أنها «ليست مسألة في نجاعة المعارك مع عدد القوات العربية والأسلحة، إنما الضعف هو في الحالة الاجتماعية ومستوى الثقافة لدى الجنود العرب. هذه الأمور لم تكن متوفرة لديهم، وانما التفوق كان للقوات الإسرائيلية». (ص ١٨٧)

وتبلغ به الرؤية الفوقية الى حدّ أنه يعتبر «دولة إسرائيل مخلوقاً مميزاً جداً في المجتمع الدولي». وهذه الحقيقة يتم ابرازها بشكل خاص عندما يتم فحص كيفية تبلور مؤسساتها الرسمية. بقية الشعوب كونت نفسها بشكل تدريجي. أما اليهود ففقدوا سلطتهم قبل ألفي عام، وما كان أيام خراب الهيكل الثاني لا يفيدهم في الدولة الحديثة» (ص ١٩٨).

هذه الرؤية الفوقية هي عنجهية في حد ذاتها وتنم عن روح علبائية ذاتية وغير موضوعية تصدر عن مؤرخ مؤلف كتاب تدريس من المفروض أن يتوخى سبل الموضوعية والحقيقة التاريخية الصريحة.

وعندما يتطرق بارناڤي إلى شرح ووقع ومكانة العرب في إسرائيل فإنه يقول: إن العرب هم فلسطينيون، بسبب الظروف التاريخية تحولوا إلى مواطنين في دولة أقيمت على قاعدة اقتلاعهم، ولأن الدولة أقيمت كدولة للشعب اليهودي، لهذا توجد مشكلة مع الأقلية القومية» (ص ٢١٠). إذن هو يعترف بحصول عملية اقتلاع الشعب الفلسطيني، وفي نفس الوقت يعلن أنه توجد مشكلة على أساس قومي بين الشعبين، ولكن هذا الاعتراف غير رسمي أو صريح انما عابر فقط.

ويطرح كيرشنباوم في كتابه التدريسي علاقة المواطنين العرب بدولة إسرائيل وبالعكس بقوله: «رغم أن المواطنين العرب أظهروا بشكل عام اخلاصاً لدولة اسرائيل. إلا أن اليهود لم يثقوا بالمواطنين العرب. وذلك بسبب اكتشاف ظواهر تجسس في صفوفهم لصالح الاستخبارات المصرية والسورية والأردنية. وهناك سبب آخر وهو الصعوبات الناجمة عن الفوارق التراثية والحضارية وانماط الحياة». (ص ٣٤٠). التناقض واضح جداً في هذا الطرح، إذ كيف يتفق الاخلاص بشكل عام مع عدم الثقة!! ثم ما علاقة الفوارق التراثية مع ثقة اليهود بالعرب؟! هل هذه الفوارق وأنماط الحياة هي قاعدة لعدم الثقة؟! تفسير غريب ونظرة فوقية فاضحة.

وأسوة بعدم اعتراف المؤسسة الرسمية الحاكمة بمجزرة دير ياسين وعدم تقديمها اعتذار الدولة الرسمي حتى الآن، فإن كتب تدريس التاريخ تنتهج نفس الأسلوب من حيث اخفاء المجازر والمذابح، إما بواسطة عدم التطرق إليها بالكلية، أو ذكرها بايجاز وبشكل عابر كما رأينا في نموذج دير ياسين. ولكن ان ترافق المجازر نظرة فوقية، فهذا أمر مستهجن لم نلحظه في أي حدث تاريخي في أي بلد آخر. فعند الحديث عن مجزرة القبية في تشرين الأول ١٩٥٣ (كتاب بارناڤي هو الوحيد من بين كتب التدريس التي فحصناها، يذكر هذه المجزرة) والتي قامت بتنفيذها الوحدة ١٠١ بقيادة أريئيل شارون يصفها بأنها «ليست جريمة، إنما للدفاع عن المستوطنات الاسرائيلية في وجه المتسللين، فقُتل في القبية ٦٩ رجلاً وامرأة وطفلاً» (بارناڤي ص ٢١٩).

وبارناڤي كباحث له مكانته في الأكاديمية الإسرائيلية يعرف جيداً ما هو موجود في سجلات أرشيف الجيش الاسرائيلي، ويعرف جيداً أن ما حدث في القبية هو جريمة ومجزرة أثارت ردود فعل شديدة في العالم. بيني موريس في كتابه «حروب الحدود» يفند المزاعم حول هذه المجزرة باقتباسه ما جاء في تقرير شارون، «اقتحمت القوة القبية بسرعة تحت غطاء النار حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، تمكنت القوة من اجتياز كل القرية، واقتحام معظم البيوت وتطهيرها بواسطة اطلاق النيران والقنابل، النساء والأطفال اختبأوا في البيوت. ألقيت قنابل على كل بيوت القرية. حتى بركة الماء في القرية دُمرت». ويضيف قائلاً: إن العملية العسكرية هذه كانت تهدف الى حد أعلى من الخسائر في الأرواح.. ويقتبس بني موريس عن موشي شاريت الفقرة التالية: «في القبية وحدها هُدم ثلاثون منزلاً. رد فعل كهذا وبقوة كبيرة كهذه لم يحدث مثله، تحركت ذهاباً واياباً في غرفتي أفكر في الموضوع وأنا محبط حتى الأعماق. وفي الغد سجلت «لو كان لديّ أدنى شك لوقوع مثل هذا القتل لكنت أقمت الدنيا وأقعدتها ضد الاقتحام هذا».

(بني موريس في كتابه المذكور ص ٢٧٨، اصدار عام عوفيد ١٩٩٦، بالعبرية، والاصدار بالانكليزية أصلاً العام ١٩٩٣).

وتعتبر كتب التدريس انتصار اسرائيل في حرب حزيران ١٩٦٧ مرحلة جديدة وحاسمة في مسيرة تكوين دولة اسرائيل وسط كراهية وتهديد العرب لها. فهذه الحملات العسكرية الجريئة حطمت القوات العسكرية العربية مجتمعة وألزمتها على الهرب بعيداً عن الحدود السابقة، وهكذا بدأت مرحلة حياة جديدة لسكان الدولة» (كيرشنباوم. م. س. ص ٣٨٠).

أية مرحلة؟ وما هي؟ تترك هذه العبارة شعاراً فضفاضاً غير محصور المعاني.